

الدوق دي لاروشفوكو

La Rochefoucauld

للدكتور حسن صادق

الانسانية، بعد أن خيبت الحياة آماله ودكت أحداث الزمن صروح أحلامه، وذهبت الحقيقة المريرة بأرواح طموحه، فجاءت هذه الآراء معتمة حرية تلقى على عواطف الإنسان رداء من الشك الأليم وتظهرها في صورة بشعة مخوفة، وهي تلخص في كلمتين: فلسفة الآخرة. وهذه الفلسفة هي التي حركت الأقلام وأثارت المناقشة، وألقت باسم صاحبها إلى الأجيال في إطار الخلود ولا يستطيع الإنسان أن يفهم مواعظ، هذا الكاتب إلا إذا درس حياته وعرف الحوادث التي اشترك فيها، وتركت في نفسه أثرا عميقا. وهذا السبب سيدعونا إلى الإطالة والتفصيل. وستقسم حياته إلى أدوار ثلاثة: دور الشاب الخيالي، ودور الرجل الطموح، ودور الشيخ الفيلسوف.

الشاب الخيالي

ولد فرنسوا السادس دوق دي لاروشفوكو بياريس (شارع بتي شان) في ١٥ سبتمبر عام ١٦١٣. وهو من أسرة عريقة لها تاريخ حربي مجيد، وتملك ثروة طائلة في (برانو وأنجوموا)، ومقام آل روشفوكو يلي مباشرة مقام أمراء البيت الملكي. وقد كتب في عام ١٦٤٨ إلى الوزير مازاران يقول: «أستطيع أن أقول وأثبت أن ملوك فرنسا منذ ثلاثمائة سنة يعاملوننا معاملة ذوى الرحم، ولا يجدون في ذلك عيبا ولا بأسا، وهذا يدل على مبلغ اعتزازه بأسرته واعتداده بأرومه».

ولما حان وقت تعلمه، أخذ منه في الريف قسطا ضئيلا، إذ اتجهت رعاية أهله إلى التمرينات الجسدية لجعلوه من حلة السيف شأن أبناء النبلاء في ذلك العصر. ثم زوجه وهو في الخامسة عشرة من عمره من فتاة ولدت في حجر صالح ونشأت في خير جليل، هي (أندريه دي فيفون). وقد قال في كبره: «يوجد زواج طيب، ولكن لا يوجد زواج عذب شهي». ومالبت بعد زواجه أن أتبع هذا الرأي قبل أن يقوله، وبجحت خارج بيته عن ضروب اللذة التي لا تهيئها العيشة الزوجية. وتناهت أخباره إلى أمراته، ولكنها صانت عفتها، ولم تألفها البعث من فقرتها. وأنجبت له أولادا ثمانية.

ثم خاض أول معركة حرية في إيطاليا وهو في السادسة عشرة من عمره. ولما عاد منها دخل البلاط الملكي. وكان الفن السائد

كتب أديب فاضل في عهد الرسالة الغراء رقم (٤٠) يقول إن السبب الأول في سقوط روايات كورني الأخيرة يرجع إلى غلو هذا الشاعر «في مبدئه الذي يعنى بتصوير الأشخاص كما يجب أن يكونوا، فجاءت شخصيات قصصه الأخيرة خارجة عن حدود المعقول»، لآلى اضمحلال قواه الذاتية من أثر المهرم كما ذكرت في مقال عن هذا الشاعر العظيم. وأعتقد أنى محق فيما ذهب إليه لأن كورني قال عن نفسه بعد فشل قصصه الأخيرة «شعري ذهب مع استاني»، ولأن شخصيات قصصه الأولى الخالدة كالسيد وهوراس وسنا تملو على الضعف الإنسان وعلى الرغم من ذلك أبلغت الشاعر قمة المجد وأكسبته لقب: كورني العظيم ثم قال الأديب الفاضل إن كلمات فولتير: «الشرح الوحيد لكتب كورني يجب أن يكون بكتابة هذه الكلمات في أسفل كل صحيفة ١ جيل. جليل. ١ لا هي ١»، على ما جاء في كتب الآداب الفرنسية، قلت في راسين لا في كورني. وأصر على أن فولتير الذي عرف بالبخل الشديد دفعه إعجابه بكورني إلى أن يقبض ابنة اخته ويزوجها بمهر ثم يزوجها. ولم يكفه هذا بل نشر كتبه وشرعها إعجابا في إظهار إعجابه بالشاعر الأكبر، وكتب في مقدمة شرحه تلك الكلمات. وأرجو من الأديب الفاضل أن يتفضل بإرشادي إلى كتب الآداب التي ذكرت أن فولتير قال تلك الكلمات في راسين لا في كورني وله منى وافر الشكر.

والآن نتحدث عن الدوق دي لاروشفوكو الذي شغل أذهان الناس في عصره وأقلام الكتاب والنقاد في العصور التالية. ولم يخرج هذا الرجل لداس من الآثار الأدبية غير مذكراته شأن أماله النبلاء الأغنياء، وكتاب صغير الحجم عنوانه: «مواعظ أو تأملات وأحكام أخلاقية»، جمع فيه كل آرائه في العواطف

هو لاندنفدها في هذه السيل ، فاستقادت لأنها كانت تفعل كل ما يسر حبيبها . وكانت دائمة الوفاء للفرام ، كثيرة التغير لموضوعه . وإن لم أر إنسانا أقل اكراما للاثطار ، ولا امرأة أكثر احتقارا للواجب منها . ما عرفت في حياتها غير واجب واحد : هو أن تحصل على إعجاب صاحبها بها .

وكان ريشليو قد أبعداها إلى (دامير) حتى يقطع الصلة التي بينها وبين الملكة ، ولكنها كانت تأتي لزيارتها خفية ، وتمهد لها طريق الاجتماع بالدوق بوكنجهام الانجليزى في حديقة اللوفر . وعرف ريشليو هذه الأخبار فأبعد الدوقة إلى التورين ، وهناك قابلت لاروشفوكو ، واستطاعت بدعائها أن تستخدمه رسولا بينها وبين الملكة . ولم تقف عندها هذا الحد ، بل نظمت رسالة سرية خطيرة بين ملكة فرنسا وملك أسبانيا . وعرف ذلك الوزير الساهر على مصلحة بلاده ، فأرعى إلى الملك أن يطلق زوجته ويخرجها من الأرض الفرنسية

ولما شعرت الملكة بعزم الكردينال ، استدعت لاروشفوكو وتقدمت إليه أن يسبل لها طريق الحرب إلى بروكسل . وهو يقول في مذكراته عن هذه الحادثة : « لما وقعت في هذا المأزق لم تجد وفيالها غيرى وقهرماتها الآسنة دى هوتفور ، فعرضت على أن أختطفها وأذهب بها إلى بروكسل . وقد بنت أخطار هذا العمل والصعاب التي تقوم في وجه انقاذه سرورا كبيرا في دخيلتى . كنت في سن تحب إلى الانسان أن يأتى أعمالا خارقة ذات دوى عظيم . ولم أجد عملا يرضى هذه السن أكثر من اختطاف ملكة من زوجها ، وفناء من ملك يهواها .

ولكن ريشليو أحبط هذه الخطة ، وآلم الملكة جد الالم . وخافت الدوقة دى شفرير بطش الوزير فاعتزمت الحرب . وكانت تجيد ركوب الخيل ، فقادت مدينة (تور) في زى رجل ، ومعها خادمان وكان ذلك في السادس من شهر سبتمبر عام ١٦٣٧ . ولما صارت على مسيرة فرسخ من (فرقى) التي التجأ إليها لاروشفوكو ، أرسلت إليه تقول إنها رجل من النبلاء اضطر إلى الحرب عقب مبارزة ، وتسأله أن يرسل إليها عربة مقفلة وبعض خدم . وما أن أتى على الرسالة نظره حتى عرف خطها ، ولكنه لم يستطع الذهاب إليها لأن ضيوفه أرادوا أن يصحبوه . وأرسل إليها في الحال ما طلبت ، فسارت آمنة حتى بلغت حدود أسبانيا . ثم أرسلت إليه جميع حليها

فيه كما قال فولثير ، هو تدبير الدسائس لقهر الوزير الكبير الكاردينال ريشليو . فاستدرج هذا الفن فرنسوا ودفعه إلى أحضان النبلاء الذين كانوا يثنون من سلطان الوزير ويأتمرون به في كل حين . ورأى بعينه سيطرة الوزير وأنواع العذاب الذى ينزله بهؤلاء النبلاء ليخضعهم للقانون العام ، ولكنه لم يجبن ولم يرجع عن سبيله وكان في ذلك الوقت كثير الكبرياء ، طموحا بلاغرض معين ، حتى الذهن ، دقيق الملاحظة ، خجولا كلما بالخيال ، شديد الميل إلى مجالس النساء . وقد لازمه هذا الميل طيلة عمره . وعقب دخوله البلاط اتصل بأحب فتيات الملكة (آن دوريش) إليها ، وهى الآسنة دى هوتفور التي يحبها الملك لويس الثالث عشر حبا أفلاطونيا . وهذه الصلة عبت له الطريق إلى اكتساب ثقة الملكة البائسة المضطهدة من جراء الريبة في نيتها وأغراضها . وقد سببت له هذه الثقة ضررا كبيرا ، كما ذكر في مذكراته : « أسباب أفقه من هذه كانت كافية لأن تبهر نظر رجل لم يسير غور الحياة ، وتدفعه في سبيل ضارة بمصلحته ، وقد جلب على هذا السلوك غضب الملك والكاردينال ريشليو ، وسلسلة طويلة من المحن أدخلت الاضطراب على حياتي »

وفي عام ١٦٣٣ سافر مختارا مع بعض شبان الطبقة العالية إلى بحارية الأسبان في الفلاندر ، وأظهر في ساحة القتال من ضروب البسالة والاقدام ما أثار الإعجاب . ولما عاد من الحرب ، أمر بمغادرة باريس والاقامة في أملاك أبيه ، لأنه انهم ظلما بأنه أفشى جميع ما دار في الموقعة . ولكنه أدرك أن الملك أصدر هذا الأمر انتقاما منه لصلته بالملكة والقهرمات دى هوتفور

حرم عليه دخول الحاضرة أربعة أعوام . وهيات له المصادقة العسة أثناء ذلك مقابلة الدوقة دى شفرير ، شيطانة الدسياسة كاسماها سانتيف ، وعقد أواصر الصداقة معها . وقد وصفها الكاردينال دى رتز (١) بأنها « كانت تحمك الدسائس ، لأنها جاءت في عصر الخداع والختل . ثم اتصلت بالدوق بوكنجهام والكونت دى

(١) ١٦١٣ - ١٦٧٩ . قيس قرنى مستقر اشترك فدسائس البلاط أيام الملك لويس الثالث عشر ، وتابع ثبات الطرق حتى حصل على رتبة كاردينال ومنصب أسقف باريس . وسجى عنه ما زاراه في الباستيل ، فهرب منه وهام على وجهه في أعاء أوروبا وقتا طويلا . ولما استطاع العودة إلى باريس عاش فيها عيشة المنع والغملة . وغرد ذكره يرجع إلى مذكراته المنشورة التي نشرت في ١٧١٧ والتي دلت على علمه كعب في الكتابة ودقة الملاحظة وسحر التصوير

والعظماء . وقد ذكر هذا العهد في مذكراته فقال : كنت شاباً في ذلك الوقت ، وكان الملك ووزيره يدنوان رويداً من القبر ، فرجرت أن أحصل على خير كثير بعد موتهما وتغير الحال . وكنت سعيداً في اسرتي ، أحظى بكل مسرات الريف وأجد حولي كثيراً من النبلاء الأغنياء المفضوب عليهم من الوزير ، لهم مثل أمانتي وآمالي . وهنا يظهر الرجل الطموح في ثوب الشفيق على ملكة تيسة .

ولما دارت رحى الحرب في (البلاد الواطئة) ، سمع له بالانضمام إلى الجيش بعد طول إلحاحه ، وأبلى بلاء حسناً في موقعي سان نيقولا وسان دينان . وعرض عليه ريشليو رتبة سامية مكافأة له على بسالته فرفض إذعانا لأمر الملكة ، إذ كان في نيتها أن تجنبه قيد الوزير حتى يستطيع أن يسلم سيفه في وجهه لما تمكنها الظروف من إشهار عداوتها له .

حسن صادق

يتبع

وقيمتها ... ٢٠٠ دينار راجية منه أن يقبلها منها هدية إذا قضت نحبها ، أو يردها إليها في أحد الايام اذا قدر لها أن تعود إلى بلادها

وقد ذكر مسألة الحل في مذكراته للدلالة على الثقة التي يلهمها وفائده ، مع انه ينكر في كتابه مواظبه ، الثقة النقية الخالصة ويقول : « ليس لنا أن نفخر باكتساب ثقة هي دائماً مشوبة بالغرض » وذكر أمامه أحد أصدقائه جاك إسبريه (١) هذه الحادثة وقال يداعب صديقه في شيخوخته : « عماثير العجب أن يفخر انسان بأن أميرة لجأت اليه ووضعت بين يديه حياتها وحرمتها ، مع أنها لم تفعل ذلك الا خشية الوقوع في يد العدالة ، وأن يفخر بأن هذه الأميرة انتمت على حلها الثمينة وهي خارجة من وطنها ، مع انه لم تفعل ذلك الا في سبيل مصلحتها الذاتية ، أي

حرصاً على مالها وخوفاً عليه من السرقة في الطريق » ، وهذا رد ساخر على كتاب لاروشفوكو الذي يرجع كل المواقف الانسانية الى مصدر واحد هو : المصلحة الذاتية أو الاثرة

ثم عرف ريشليو أن لاروشفوكو ساعد الدولة على الحرب فاستقدمه اليه وأبى . ولما رأى منه غلظة في الاجابة على استئنه ، أرسله الى سجن الباستيل ، ولكنه أمر مدير السجن بأن يتلطف في معاملته ويسمح له بالاستراحة على الشرف كل يوم . وبعد مرور ثمانية أيام على سجنه ، أطلق سراحه لحمد الله على خروجه بعد هذه المدة الوجيزة في عهده يحرس الباستيل فيه على حرفائه ، وأنساء شعوره برضى الملكة وقهر ماتتها والدوقة عن عمله ، مرارة السجن وقسوته .

وعقباً بترداد حربه أمر بمغادرة باريس والاقامة في (فرقي) وهناك جاءه رسول من الدوقة وتسلم منه حليها ، وعاش في ذلك الريف صامناً هادئاً مطمئناً ، وأصبح يته ملتي النبلاء

(١) ١٦١١ - ١٦٧٨ . كاتب فرنسي مجيد كان معاصراً لني لاروشفوكو وصديقاً له وانتخب عضواً في مجمع الملاد . في عام ١٦٣٩ . وأشهر مؤلفاته كتاب حوائه وشواب النفعيلل الانانية ، الذي يتميز فيه روحاً وتعبيراً لمواظ لاروشفوكو

